

## إسلامه

كان إسلام خالد ضربا من التسليم .

كان ضربا من التسليم بمعناه "العسكري" المصطلح عليه في عرف القادة ورجال الكفاح

لأنه أسلم أو سلم تسليم القائد البصير بحركة القتال بين المد والجزر، والنصر والهزيمة، الخبير بموضع الأقدام وموضع الإحجام، المقاتل والقتال شجاعة، المسالم والسلم ضرورة لا محيص عنها<sup>(١)</sup>.

ولم يكن تسليمه تسليم العاجز الوكل<sup>(٢)</sup> ولا الجازع المنخذل . بل لعله من نفسه غاية الثقة بالقدرة، وحمادى<sup>(٣)</sup> اليقين بالخبرة، يوم أسلم وسلم إلى معسكر الدين الجديد . كأنه آمن بالله لأنه علم من ذات نفسه أنه لن يغلبه إلا الله، وكأنه كان يقول في قرارة ضميره: أيهزمنى أحدا وليس له مدد من النبوة؟ أيعلو سيف على سيفى وليس له سر من السماء؟ ..

فبلغ نهاية الإيمان يوم بلغ بداية الإيمان بالله

وقد كان على ذويه فى بنى مخزوم أن يحاربوا حربهم إلى نهايتها لأن الصراع بين الجاهلية والإسلام لم يكن إلا صراعا لهم قبل كل جاهلى وكل قرشى وكل عربى على التعميم .

وكان معسكرهم أولى المعسكرات أن يصد إلى موقف الحسم من النضال بين الفريقين، لأن بلاءه بإدبار<sup>(٤)</sup> الجاهلية أكبر من كل بلاء، وموقفه أمام الإسلام موقف من ينافح عن عزته وعزة بيته وعزة آبائه وأجداد، وعزة "النظام" الاجتماعى كله كما قررتة الجاهلية بعد أحقاب، لأنه النظام الذى به يقومون وبهم يقوم .

(٢) الوكل: الجبان العاجز .

(١) لا محيص عنها: لا مفر منها .

(٤) بإدبار الجاهلية: يعنى (بزوالها) .

(٣) الحمادى: الغاية وملغ الجهد .

وقد أبلى أبوه فى هذا الصراع قصارى ما فى وسعه من بلاء، وهو شرح يطول، وتفصيل تضيق به الفصول، ولكن إشارة واحدة فيه تغنى عن بيان طويل، وصفحة موجزة من صفحاته تعنى هم الأطناب فى القيل والقال..

وحسبنا من تفصيل مكائده وجهوده كلها فى حرب الإسلام أن نقول إنه قدر هان عليه فى هذا السبيل أن يبذل العزيزين: الولد والمال.

ففى بداية الدعوة المحمدية سعى وقومه إلى عم النبي أبى طالب ليسلمهم محمداً أو يتخلى عنه، وله بديلاً منه عمارة بن الوليد<sup>(١)</sup>. . . وقد وصفوه بأنه أنهد<sup>(٢)</sup> الفتیان وأشعرهم وأجملهم فى قریش.

وبعد استفاضة الدعوة المحمدية يسعى إلى النبي فيمن سعى إليه من سراة<sup>(٣)</sup> قریش لشاطروه أموالهم ويسكت عن أربابهم وعباداتهم، وفى ذلك يقول القرآن الكريم فى سورة الأحزاب: "ولا تطع الكافرين والمنافقين" . . .

وبمقياس هذا البذل السخى فى سبيل الله تقاس كراهة الرجل للدين الجديد، وهى كراهة الهرم التى تبقى إلى الموت، لأنه فوجئ الإسلام وهو يقارب الثمانين، وظل على الكيد له حتى مات بعيد الهجرة وقد نيف على الخامسة والتسعين

وكان خالدًا فتى ناشئاً يوم ظهر النبي بالدعوة الجديدة، فنفر منها كما نفر قومه أجمعون، وزاد على النفرة لها من حمية صباه<sup>(٤)</sup>، وتحفزاً فتياً يسبق أباه.

(١) وله . . الخ: أى: (وله عمارة بن الوليد بديلاً منه)

(٢) أنهد الفتیان: أشدهم وأقواهم.

(٣) سراة: جمع سرى، وهو الكريم ذى المروءة، والمقصود (عظماؤهم).

(٤) حمية الصبا: حماسة الشباب.

فما هو إلا أن بلغ مبلغ الزعامة فى القتال حتى تجرد لها بعزيمة الفتوة وشجاعة البطولة، ولم تنقص ستان على موت أبيه حتى كان قائد الميمنة فى وقعة أحد المشهورة، وتولى الهجمة التى مالت بكفة النصر من جانب المسلمين إلى جانب المشركين.

وذلك أن النبى عليه الصلاة والسلام أقام الرماة من وراء جيشه وقال لهم: "قوموا على مصافكم"<sup>(١)</sup> هذه فاحموا ظهورنا، فإن رأيتونا قد انتصرنا فلا تشركونا، وإن رأيتونا نقتل فلا تنصرونا". فلما ولى المشركون منهزمين وتبعهم المسلمون مغتتمين، خالفت كثر الرماة وصاية النبى وتصايحوا بينهم: 'ما مقامنا ها هنا وقد انهزم المشركون' فكانت هى الغيرة التى اهتبلها<sup>(٢)</sup> خالد، ولم تذهله عنها الهزيمة المطبقة بقومه، فكر بالخييل وتبعه عكرمة بن أبى جهل صاحب الميسرة وداروا من وراء جيش المسلمين، فحملوا على من بقى من الرماة فقتلوهم وقتلوا أميرهم عبد الله بن جبير، وانتقضت<sup>(٣)</sup> صفوف المسلمين واستدارت رحاهم<sup>(٤)</sup>، واختلطوا فصاروا يقتتلون على غير شعار، ويضرب بعضهم بعضا من العجلة والدهش، وشاع أن عليه الصلاة والسلام قتل فى المعركة، وقتل فيها حمزة وسبعون من الأنصار وأرجف المرجفون<sup>(٥)</sup> بكبار الصحابة حتى ظن أبو سفيان أن أبا بكر وعمر من القتلى، وصاح بين الصفوف: "يوم بيوم بدر والحرب سجال"<sup>(٦)</sup>.

واشترط خالد فى وقعة أخرى هى وقعة الأحزاب، أو الخندق، فكانت هى أيضا من أهول الغزوات على المسلمين، وأوشكت أن تحيق بهم دواثرها

(١) المصاف: جمع مصف (بفتح الميم وتشديد الفاء) وهو موقف الحرب.

(٢) الغزة التى اهتبلها الغفلة التى انتهز فرصتها. (٣) انتقضت: تشتت.

(٤) الرحى: الطاحون، ويقال 'دارت عليه وحى الحرب' إذا انهزم، وقوله (استدارت رحاهم) أى انقلبت الآلية وهزموا بعد أن كانوا منتصرين.

(٥) أرجفوا بهم: اختلفوا الأقوال الكاذبة، ومنه قوله تعالى (والمرجفون فى المدينة).

(٦) الحرب سجال: متداولة بين المتحاربين، يوم لهؤلاء، ويوم لأولئك.

لولا يقظة علي بن أبي طالب، ووقعية بعض الدهاة بين أحزاب قريش، وهبوب الريح التي عصفت ببيوتهم وقدورهم وزادتهم بأساً من اقتحام الخندق الذي حفره المسلمون حول المدينة، وفي هذه الغزوة يقول القرآن الكريم: "يأيها الذين آمنوا واذكروا نعمة الله عليكم إذ جاء جاءكم جنود فأرسلنا عليهم ريحاً وجنوداً لم تروها وكان الله بما تعملون بصيراً، إذ جاءكم من فوقكم ومن أسفل منكم وإذ زاغت الأبصار وبلغت القلوب الحناجر وتظنون بالله الظنونا، هنالك ابتلى المؤمنون وزلزلوا زلزلاً شديداً...".

وقد كان خالد في هذه الغزوة يطوف بخيله حول الخندق يلتمس مضيا يقحم منه الخيل فأعياه، وفشل عمرو بن ود<sup>(١)</sup> حين حاول العبور من إحدى نواحيه. فلما حبطت<sup>(٢)</sup> حملة عمرو وقتله علي بن أبي طالب بات المشتركون ليلتهم يقسمون كتائبهم لكل فريق من المسلمين كتيبة تدهمه مع الصباح، فكان خالد هو الموكل<sup>(٣)</sup> بالنبي عليه الصلاة والسلام في كتيبة غليظة من خيل قريش والأحزاب، فاندفع يقاتل سحابة النهار وهويا من الليل<sup>(٤)</sup>، إلى أن تحاجز الفريقان، ورجع المشركون، وأنصرف المسلمون إلى قبة النبي، فارتد خالد بعد هنيهة يطلب الغرة، وكان يظفر بها لولا حرس من المسلمين بقيادة أسيد بن حضير تنبه له وفوت عليه غرضه. ثم انقطع القتال وهو لا يزال على الطلب والطواف، وكان آخر من ترك الحومة بعد يأس الأحزاب من عبور الخندق ودخول المدينة، فلبث هو وعمرو بن العاص على ساقه الجيش<sup>(٥)</sup> في مائتي فارس للجيش كله، مخافة أن يعتقبه المسلمون

وتصدى خالد مرة أخرى للنبي عليه الصلاة والسلام في سنة الحد بيته وهو طريقة إلى مكة. وكان النبي قد خرج إليها معتمراً<sup>(٦)</sup> في نحو ألف

(١) في سيرة ابن هشام أنه (عمرو بن عبد ودين قيس أخو بني عامر بن لؤي).

(٢) حبطت: اخفقت. (٣) الموكل: الذي يتولى أمره.

(٤) هوى من الليل: هزيع أو قسم من الليل. (٥) ساقه الجيش: مؤخرة.

(٦) معتمراً: يريد العمرة، وهي زيارة تسمى الحج الأصغر.

وخمسمائة من المسلمين لا يحملون سلاحا غير السيوف فى القرب، فأوجس المشركون خفية أن يكون قدومه إلى البيت الحرام للقتال لا للعمرة، وندبوا خالدا فى مائتى فارس للقائه قبل بلوغ مكة. فدنا خالد حتى نظر إلى أصحاب رسول الله، وأمر رسول الله عباد بن بشر فتقدم فى خيله وأقام بإزائه وصف من ورائهم رجاله، ثم حانت صلاة الظهر فصلى رسول الله بأصحابه صلاة الخوف، هم خالد أن يغير عليه لولا نخوة من الفروسية أبت له العدوان على المسالم وقمعت فيه طمع الرئيس المغيظ على مكانته وعروض دنياه<sup>(١)</sup> فقلت هنا كفة الفارس النبيل على كفة الرئيس الموتور، وقال خالد بسب ذلك بعد إسلامه: "هممنا أن نغير عليه ثم لم يعزم لنا، وكان فيه خيرة، فاطلع على ما فى أنفسنا من الهجوم به فصلى بأصحابه العصر صلاة الخوف، فوقع ذلك منى موقعا، وقلت: الرجل ممنوع".

إلا أنه مع هذا بقى على للده<sup>(٢)</sup> فى خصومة الإسلام ومعاندة نفسه دون الإصغاء له والنظر إليه. فلما صالح النبى قريشا ودخل مكة فى عمرة القضاء<sup>(٣)</sup> كره خالد أن يشهد دخوله، وتغيب من جوار البيت ريثما يعتمر المسلمون ويرجعون من حيث أتوا، وهو معنى النظر من رؤية شىء لا يستحبه ولا يخلى بينه وبين حربه

كذلك كانت كراهة خالد للإسلام بعد كراهة أبيه

ومن وثباته هذه، ولجاجة ذاك، يغلب على الظن أن كراهته كانت من نوع تلك الكراهة التى هى أقرب إلى المبارزة المناجزة منها إلى المقت والضغينة. لأنها لا نعى صاحبها بالعبد من المبارزة اللازم لإتمام الصراع وإذكاء حرارته وامتحان قدرة النفس عليه.

(١) عروض دنياه: جمع (عرض) بفتحين، وعرض الدنيا ما كان من مال قل أو أكثر.

(٢) اللدد: شدة الخصومة.

(٣) سميت كذلك لأنها كانت بدلا من العمرة التى صدته عنها من قبل.

وهذه الحرارة حركة جياشة فى النفس، وليست كذلك الموات الذى تنقبض عليه النفس فى الشيوخوخة الفانية، ولا كذلك الضغن الذى يتغذى بقيحه المخزون فى طبيعة منغولة<sup>(١)</sup> معدومة الخير والنجدة.

مثل هذه الحركة الجياشة فى النفس الحية الفتية كالسيل المتدفق الآتى<sup>(٢)</sup> فى واديه المحيط بجانيه، يظل متدفعا أتيا ما بقى فى الوادى، وما انهمر عليه الغيث من ضفتيه. ولكنه إلى أمد لا محالة، لأنه سينتهى إلى مفترق الوادى فلا يجيش ولا يتدفق، وسيقصر عنه الغيث فلا يربو ولا يترع<sup>(٣)</sup> وسيكون طريقه مع الوادى المفترق غير طريقه مع الوادى المحصور

والوادى هنا قد افترق فى مجراه شعبة بعد شعبة منذ عهد غير قريب وإن لم ينته بعد إلى غاية المفترق فى الأرض البراح<sup>(٤)</sup>.

افترق الوادى قليلا حين انقسم بيت المغيرة بين معسكر الجاهلية ومعسكر الإسلام، وأصبح فى معسكر الإسلام أخوان حبيبان إلى خالد، وهما الوليد وهشام

وافترق يوم أصغه إلى القرآن فحدث آل بيته عنه ذلك الحديث الذى أرابهم وأشجاهم<sup>(٥)</sup>، فحسبوه قد صبا عن دينه وسألوه عن نبأ محمد فأوشك أن يقع فى قلبه أنه وحى السماء لو لم ينطق لسانه بأنه السحر الذى يفرق بين الرجال وزوجه الوالد وبنيه، والسيد ومولاه!..

وافترق قليلا يوم شهد خالد سكينه المسلمين فى طريق الحديدية وهم

(١) طبيعة منغولة: مشحونة بالحقد والضغينة، والنغل. الفساد

(٢) السيل الآتى: الذى يأتى من مكان بعيد لا يدرك.

(٣) يربو: يريد ويفيض: ويترع: يمتلى.

(٤) البراح: المكان المكشوف لا يستره شجر أو غيره.

(٥) آرابهم: بعث الشك والريبة فيهم، وأشجاهم: غمهم وأحزنهم.

قائمون للصلاة، وهجس في خاطره أن يغير عليهم فصدته عنهم رهبة الصلاة ونخوة الفارس المحجم عن الغدر والغيلة<sup>(١)</sup>، وسرى في روعه<sup>(٢)</sup> أن لمحمد لسراً وأن الرجل لممنوع

وكان لتلك الحركة الجياشة مدد من تحريك الكتائب وتجريد الطلائع وإقامة الأرصاء<sup>(٣)</sup> والتقاء الجموع واتفاق الكلمة بين المشركين على الحرب والعداء، فإذا هم يتبلبلون مختلفين بعد صلح الحديبية، وإذا بصلح الحديبية يلقى السلاح من الأيدي سنين طوالاً لا لقاء فيها ولا نزال، ولا سورة من غضب، ولا جدوة من غيظ مثار<sup>(٤)</sup>.

ومات الشيوخ الذين كانوا يخيمون بوقارهم وجمودهم على العقول، وتهياً الجو للسؤال: فيم هذا العداء والنضال؟ أمن أجل الكعبة ومحمد يرعاها ويحترم جوارها ويحج إليها؟ أم من أجل العصبية القومية وشرف محمد شرف العرب أجمعين؟.. أم من أجل الكرامة ومحمد يصون للعزير كرامته ويعرف للحسب قدره؟..

ومن أين لمحمد ذلك النصر المبين بعد النصر المبين؟

ومن أين له تلك المهابة التي ترد عنه الأعين والأيدى من قريب؟

ومن أين له ذلك العون الذي يدكه وقد أحاطت به الهزيمة من كل فج فإذا هو ناصل<sup>(٥)</sup> منها، وإذا هو الطارد الظافر وقد خيل إليهم أنه الطريد المخدول؟..

ومن أين للمسلمين ذلك الأدب وذلك الخشوع؟ ومن أين للنبي بينهم

ذلك السلطان الصاعد<sup>(٦)</sup> والصوت المسموع؟

(١) الغيلة: بعث الاغتيال. و(قتله غيلة) أى خدمة ثم قتله غدار.

(٢) الروع: (يضم الراء) القلب والعقل. (٣) الأرصاء: الرقباء والحراس.

(٤) سورة الغضب: وثوبة وهياجه، والجذوة: جمرة النان

(٥) ناصل منها: خارج منها. (٦) السلطان الصاعد: القوى القاطع.

لقد رأهم ورآه سيد أهل الطائف عروة بن مسعود فعاد إلى قومه يقول:  
"والله يا معشر قريش!.. جئت كسرى في ملكه، وقيصر في عظمته، فما  
رأيت ملكا في قومه مثل محمد بين أصحابه، ولقد رأيت قوما ولا  
يستلمونه<sup>(١)</sup> بشيء أبدا، فانظروا رأيكم، فإنه عرض عليكم رشدا، فاقبلوا ما  
عرض عليكم فإني ناصح، مع أنى أخاف ألا تنصروا عليه".

ولقد رأوه بعد ذلك في عمرة القضاء لا يتوضأ وضوء<sup>(٢)</sup> إلا كاد  
المسلمون يقتتلون عليه، وإذا تكلموا خفضوا أصواتهم عنده، ولا يحدون<sup>(٣)</sup>  
النظر إليه، ورأوهم في نظامهم ومودتهم! وصدق إيمانهم وخالص نياتهم،  
فأكبروهم وعز عليهم أن يصغروهم أو يتمادوا في الزرابة بهم<sup>(٤)</sup> والإعراض  
عنهم، وانقلبوا إلى أنفسهم فإذا هم مرتابون في الغد متدابرون في  
المقصد<sup>(٥)</sup>، منهزمون وهم الأكثرون، محجمون وهم المتربصون. فحانت  
الساعة لوزن الأمور ومراجعة الحاضر والمصير، وفرضت هذه المراجعة فرضا  
على كل ذى بصر بالقيادة في معارك النضال أين تفشل وأين يتسع لها المجال،  
فإذا بالرجلين المفظورين على توجيه الوجوه قد انتهيا إلى رأى فى مصير  
المعركة بين الجاهلية والإسلام فى ساعة واحدة، وعلما أين يقف الدينان  
المتناجزان<sup>(٦)</sup> من حق النصر وعوارض الهزيمة، وهما عبقرى قريش فى أصول  
القيادة على تباين السن والمذاهب والمزاج: خالد بن الوليد وعمرو بن العاص.

وفى تلك الآونة التى يشتد فيها الجذب والدفح بين الإنسان وقرارة  
ضميره وتجب الموازنة وجوبا على كل ضليع بها قادر عليها، لم يترك خالد  
لنفسه، ولم يلبث أن جاءته الدعوة التى تنصره على عناده، وتخرجه من

(١) لا يسلمونه: لا يفرطون فيه. (٢) الوضوء: بفتح الواو) الماء الذى يتوضأ به.

(٣) يحدون النظر إليه: ينظرون إليه بحدة. (٤) الزرابة بهم: امتهانهم وغيهم.

(٥) متدابرون فى المقصد: متقاطعون مختلفون. (٦) المتناجزان: المتصارعان.

تردده، وتستدعى منه البيت العاجل بجوابه، وتمسح الغضاضة التى لعلها كانت تثنيه عن تلبية ضميره.

وتلك رسالة من أخيه يحملها له من كلام محمد، ولا غنى فيها عن جواب..

قال أخوه الوليد: "... أما بعد.. فإننى لم أر أعجب من ذهاب رأيك عن الإسلام وعلقك عقلك<sup>(١)</sup>، ومثل الإسلام يجعله أحد؟! "

ثم مضى يقول: " سألتنى رسول الله ﷺ فقال، أين خالد؟ فقلت: يأتى الله به؟ فقال: ما مثل خالد يجهل الإسلام، ولو كان جعل نكايته<sup>(٢)</sup> وحده مع المسلمين على المشركين لكان خيرا له، ولقد مناه على غيره..

فاستدرك يا أخى ما فاتك منه، فقد فاتك مواطن صالحة "

تلك كانت هى الدعوة التى جاءت فى أوانها.

وكان إسلام خالد هو الجواب.

فهى مراحل الطبيعية التى لا بد له من عبورها بين الجاهلية والإسلام: لم يكن طبيعيا أن يلبى أول دعوة وهو هو فى قريش صاحب معلقها المنبع..

ولم يكن طبيعيا أن يلبى الدعوة فى وطيس الحرب ومحتدم العداة ولم يكن طبيعيا أن يسكن هنيهة إلى الموازنة وقد انقسم بيته ثم انقسمت نفسه ثم جاءت الدعوة الكريمة فى حينها فلا يكون الإسلام جوابه المنظور..

فهو قد انتقل من الإصرار، إلى القتال، إلى المواجهة، إلى الموازنة، إلى التراجع، إلى الإجابة، ولو عجل بواحدة من هذه الخطوات لكانت هذه العجلة هى مكان العجب، وهى الأمر المخالف لطبائع الأمور.

(١) وعقلك عقلك: أى ولك ذى العقل نعرفه فيك.

(٢) نكايته: (نكى فى العدر) أى قتل فيهم وجرح.

وقد أسلفنا أن الإسلام كان في أمر خالد ضرباً من التسليم، فنعيد هنا أنه تسليم القائد في معركة نفسية، وليس بتسليم القائد في معركة حسيّة وكفى، ولهذا عناه<sup>(١)</sup> أن يستغفر له النبي ربه عن ماضيه، ولم يكن قصاراه أن يرحب به النبي ويسلكه بين صحابته ومريديه. فقال: يا رسول الله. قدر رأيت ما كنت أشهد من تلك المواطن عليك معانداً عن الحق، فادع الله يغفرها لي.

فأجابه النبي عليه الصلاة والسلام: إن الإسلام يجب ما كان قبله<sup>(٢)</sup>.

فعاد خالد يؤكد رجاء ويقول: يا رسول الله، وعلى ذلك!

فدعا النبي ربه: اللهم اغفر لخالد بن الوليد كل ما أوقع<sup>(٣)</sup> فيه من صد عن سبيلك!..

فرضى خالد واسترح..

ولا يكون هذا إلا تسليم القلب نفض عنه الكفر، وليس تسليم اليد رمت منها السلاح..

وأحرى بنا أن نرجع إلى كلام خالد لبيان تاريخ إسلامه وسبب اهتدائه وتلخص الأحاديث التي كاشف بها خلصاءه قبل لحاقه بالنبي في المدينة ليسلم على يديه، فإنه أجمل ذلك كله إجمالاً يصفح عن تلك الأطوار النفسية التي ساورتها وإن لم يقصد إلى الإفصاح عنها، وعل صدورها منه على البديهة أبين لها وأقرب إلى توكيد من الشرح المقصود..

قال: "لما أراد الله بي من الخير ما أراد قذف في قلبي حب الإسلام، وحضرتني رشدي وقلت: قد شهدت هذه المواطن كلها على محمد، فليس

(١) عناه أن يستغفر له النبي: كان يعنيه ويهمه أن يستغفر له النبي.

(٢) يجب ما قبله، يقطعه، فلا يكون له أثر.

(٣) أوقع: أوضع فلان في الشعر: أسرع فيه.

موطن أشهد إلا وأنصرف وإنى أرى فى نفسى أنى موضع فى غير شىء، وأن محمداً سيظهر<sup>(١)</sup>. فلما خرج رسول الله ﷺ إلى الحديبية وخرجت فى خيل المشركين فلقيت رسول الله ﷺ فى أصحابه بعسفان<sup>(٢)</sup>، فقامت بإزائه وتعرضت له، فصلى بأصحابه الظهر إماماً، فهمنا أن نغير عليه ثم لم يعزل لنا. وكان فيه خيرة. فأطلع على ما فى أنفسنا من الهجوم به، فصلى بأصحابه العصر صلاة الخوف، فوقع ذلك منى موقعا وقلت: الرجل ممنوع وافترقنا، وعدل على سنن خيلنا<sup>(٣)</sup>، فأخذ ذات اليمين، فلما صالح قريشا بالحديبية ودافعته قريش بالراح<sup>(٤)</sup> قلت فى نفسى: أى شىء بقى؟ أين المذاهب؟ إلى النجاشى؟ فقد اتبع محمداً وأصحابه آمنون عنده. فأخرج إلى هرقل؟ فأخرج من دىنى إلى نصرانية أو يهودية. أفأقيم فى عجم أو أقيم فى دارى فىمن بقى؟ ..

"وبينما أنا كذلك إذ دخل رسول الله ﷺ فى عمرة القضاء، وتغيبت فلم أشهد دخوله، وكان أخى الوليد قد دخل مع النبى ﷺ فى تلك العمرة، فطلبنى فلم يجدنى. فكتب إلى كتابا فإذا فيه: "بسم الله الرحمن الرحيم. أما بعد، فإنى لم أر أعجب من ذهاب رأيك عن الإسلام وعقلك عقلك، ومثل الإسلام بجهله أحد؟ وقد سألتنى رسول الله ﷺ فقال: أين خالد؟ فقلت يأتى الله به. فقال. ما مثل خالد يجهل الإسلام؟ ولو كان جعل نكايته وحده مع المسلمين على المشركين لكان خيرا له، ولقد مناه على غيره، فاستدرك يا أخى ما فاتك منه، فقد فاتك مواطن صالحة"

"فلما جاءنى كتابه نشطت للخروج، وزادنى رغبة فى الإسلام، وسرتنى مقالة رسول الله ﷺ، ورأيت فى النوم كأنى فى بلاد ضيقة جدبة،

(١) سيظهر: سيتصر.

(٢) عسفان: موضع بين مكة والمدينة على بعد مرحلتين من مكة.

(٣) سنن الخيل: طريقها. (٤) الراح: جمع راحة وهى الكف.

فخرجت إلى بلد أخضر واسع . فقلت: إن هذه الرؤيا حق! فلما قدمت المدينة قلت لأذكرتها لأبي بكر، فذكرتها فقال: هو مخرجك الذي هداك للإسلام، والضيق الذي كنت فيه الشرك . فلما أجمعت<sup>(١)</sup> الخروج إلى رسول الله ﷺ قلت: من أصحاب إلى محمد؟ فلقيت صفوان بن أمية: أما ترى يا أبا وهب؟ أما ترى ما نحن فيه؟ إنما نحن أكلة رأس<sup>(٢)</sup>، وقد ظهر محمد على العرب والعجم . فلو قدمنا عليه فاتبعناه؟ فإن شرف محمد شرف لنا، فأبى على أشد الإبل، وقال: لو لم يبق غيري من قريش ما تبعته أبدا، فافترقنا، وقلت: هذا رجل موتور يطلب وترا<sup>(٣)</sup>، قتل أبوه وأخوه بيدر - ولقيت عكرمة بن أبي جهل فقلت له مثل ما قلت لصفوان، فقال لي مثل ما قال صفوان . . فقلت له: فاطو<sup>(٤)</sup> ما ذكرت لك . . وخرجت إلى منزلي فأمرت براحتي تخرج إلى إلى أن ألقى عثمان بن أبي طلحة، وهو صديق لي أذكر له ما أريد . ثم تذكرت من قتل من آبائه فكرهت أن أذكره، ثم قلت: وما على وأنا راحل من ساعتى<sup>(٥)</sup>؟ فذكرت له ما صار الأمر إليه، وقلت: إنما نحن بمنزلة ثعلب في حجر لو صب عليه ذنوب<sup>(٦)</sup> من ماء وخرج، وقلت له نحواً مما قلله لصاحبيه، فأسرع الإجابة . . وأدبنا بسحرة<sup>(٧)</sup> فلم يطلع الفجر حتى التقينا بياجج - على ثمانية أميال من مكة، فغدونا حتى انتهينا إلى الهدة، فوجدنا عمرو بن العاص بها فقال مرحبا بالقوم قلنا: وبك: أين سيركم؟ قلنا: ما أخرجك؟ قال: فما الذي أخرجكم؟ قلنا الدخول في الإسلام واتباع محمد، قال: وذاك الذي أقدمني، فاصطحبنا جميعاً حتى

(١) أجمعت الخروج: عزم عليه . (٢) أكلة رأس: كناية عن قلة العدد .

(٣) الوتر: (بكسر الراء) الثار، والموتور: الخاقد الذي يطلب ثأراً .

(٤) اطو ما ذكرت: أخفه ولا تعله . (٥) من ساعتى: الآن .

(٦) ذنوب: الدلو المملوءة بالماء .

(٧) السحرة: السحر، وهو قبيل الصبح، والادلاج: السير في الليل .

قدمنا المدينة، فأتخنا بظاهر الحرة<sup>(١)</sup> ركائبنا، وأخبر بنا رسول الله ﷺ فسر بنا. فلبست من صالح ثيابي ثم عمدت إلى رسول الله ﷺ فلقينى أخى فقال: أسرع فإن رسول الله ﷺ أخبر بقدمك فسر بقدمك وهو ينتظركم، فأسرعت المشى، فطلعت فما زال يتسم إلى حتى وقت عليه، فسلمت عليه بالنبوة، فرد على السلام بوجه طلق، فقلت: إنى أشهد أن لا إله إلا الله وأنت رسول الله. فقال: الحمد لله الذى هدانا لهذا. وقد كنت أرى لك عقلا ورجوت أن لا يسلمنك إلا الخير ..

إلى أن قال: "وتقدم عمرو وعثمان فبايعا رسول الله ﷺ، وكان قدومنا فى شهر صفر من سنة ثمان، فو الله ما كان رسول الله يوم أسلمت يعدل بى أحدا من أصحابه فيما حزه<sup>(٢)</sup>".

فهذا السرد البسيط قد يحوم بنا حول الخالجة<sup>(٣)</sup> الأولى التى حركت قلب خالد إلى الإيمان بالدين الجديد، ونحسب أنها قد خالجتة يوم التقائه بالمسلمين فى طريقهم إلى مكة قبيل صلح الحديبية. . يوم درته سكينه الصلاة عن جموع المسلمين وهم مسالمون قانتون إلى جوار البيت الحرام، ويوم بدا له أن هذا البيت العتيق غير خاسر شيئا بدعوة محمد وغلبة بأصحابه على البلد الأمين، ويوم تراءى العنت<sup>(٤)</sup> من قريش أن يذودوا ابن عبد المطلب عن كعبة آبائه وأجداده، ويفسحوا طريقها للوافدين من حمير كم قال الحليس بن علقمة الكنانى سيد الأحابيش.

فمنذ تلك الساعة تباعد ما بين خالد وبين الشرك، وتقارب ما بينه وبين الإسلام، وطفق يتباعد من هناك ويتقارب من هنا حتى كانت مبايعته النبى على ما تقدم قبل فتح مكة بشهور.

(١) الحرة: أرض ذات حجارة سود كأنها أحرقت بالنار.

(٢) فيما حزه: فيما أصابه من أمر.

(٣) الخالجة: الفكرة تخطر بالقلب.

(٤) العنت: التشديد وطلب المشقة.



سفيان إلى النبي يستأمنه<sup>(١)</sup> ويسأله مد العهد الذى أبرم بينهم فى صلح الحديبية فأبى النبي ولم يجيبه، وأحسن المشركون منذ اللحظة الأولى أن المسلمين زاحفون عليهم لا محالة، فلو أن قضية الشرك بقيت بقية من عزم لاستعدوا قبل السطو بخزاعة أو بعده على الأثر وأراحوا أنفسهم من الوساطة فى التأجيل والمراوغة، ولكنه التسليم الذى بدأ بإسلام خالد وصاحبيه قد تراخى به الوقت إلى أجله المعلوم.

فلما جاءها المسلمون دخلوها آمين على كثرة من بها من المشركين، وتقدم النبي صلوات الله عليه فى كتيبته الخضراء، وتقدم سعد بن عبادة والزبير بن العوام وخالد بن الوليد إلى أبوابها فدخلوها كل من الباب الذى وكل إليه، ونهى النبي أصحابه عن القتال، فلم يحدث قط قتال إلا من صوب<sup>(٢)</sup> خالد ابن الوليد، لأن صفوان بن أمية وسهيل بن عمر وعكرمة ابن أبى جهل رصدوا<sup>(٣)</sup> للباب الذى وصل منه وجمعوا له جمعهم فمنعوه ورموه بالنبل، وشهروا عليه السلاح، فبطش بهم وقتل منهم قرابة ثلاثين أكثرهم قريش وأقلهم من هذيل، وولى السادة والأتباع بعد ذلك فى هزيمة نكراء.

أهو تدبير أم مصادفة أحكم من التدبير؟

خالد دون غيره تصادفه جنود رفاقائه بالأمس فى جيوش المشركين فيرمونه ويرميهم وقد كانوا معا يرمون المسلمين من قوس واحدة! إنه حارب فى صفوف الإسلام عرب الجزيرة العربية وعرب العراق والشام، وحارب فى صفوف الإسلام جيوش الفرس والروم، وحارب فى صفوف الإسلام كل من برز لتلك الصفوف، فما بال الجاهلية القرشية وحدها ينصرها على المسلمين

(١) يستأمنه: يطلب الأمان.

(٢) صوب: ناحية.

(٣) وصدوا: راقبوا.

ولا ينصر المسلمين عليها؟ وأين يلتقى بها إن فاته لقاءها فى ذلك اليوم؟ لقد لقيها إذن فى ساعتها التى لا ساعة بعدها، وقال النبى حين سمع بضربته: ألم أنه عن القتال؟ قالوا: إنه خالد قوتل فقاتل! فقال: "قضاء الله خير. . ." ثم قال: "لا تغزى"<sup>(١)</sup> عَرِيش بعد هذا اليوم إلى يوم القيامة. . . "

وغرائب الاتفاق هكذا تكون حيث تكون.

\*\*\*

---

(١) لا تغزى: لا: نافية، ولذلك بعدها مرفوع.